الدرس الثاني عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، اللهم علِّمنا ما ينفعنا وزدنا علما ، اللهم إنا نسألك علما نافعا ورزقا طيبا وعملا متقبلا . أما بعد

قال المؤلف رحمه الله تعالى وغفر له في كتاب «أصول الإيمان»:

باب الإيمان بالقدر

وعن الوليد بن عبادة قال : دخلت على أبي وهو مريض أتخايل فيه الموت فقلت : يا أبتاه أوصني واجتهد لي، فقال : أجلسوني فلما أجلسوه قال : «يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان ولن تبلغ حقيقة العلم بالله تبارك وتعالى حتى تؤمن بالقدر خيره وشره» ، قلت : يا أبتاه وكيف لي أن أعلم ما خيرُ القدر وشرُّه ؟ قال : «تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليُخطئك ، يا بني إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((أول ما خلق الله القلم قال اكتب ، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة)) ، يا بني إن متَّ ولست على ذلك دخلت النار» رواه أحمد .

****

أورد المصنف شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى هذا الحديث حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه في باب الإيمان بالقدر ، وصلة هذا الحديث بالترجمة ظاهرة من جهة دلالة هذا الحديث على أن الإيمان بالقدر أصلٌ من أصول الإيمان وأساسٌ من أسسه العظام ، وأنه لن يذوق أحد طعم الإيمان وحقيقة العلم بالله تبارك وتعالى إلا بالإيمان بالقدر خيره وشره ، وهذا أتى في وصية عبادة بن الصامت لابنه الوليد .

يقول الوليد بن عبادة : ((**دخلت على أبي وهو مريض أتخايل فيه الموت**)) أي أحس وأشعر أنه قارب من العلامات التي يراها على والده واشتداد المرض عليه ، قال ((أتخايل فيه الموت)) أي أشعر وأحس أنه قد دنت منيَّته واقترب أجله .

يقول ((**فقلت : يا أبتاه أوصني**)) وهنا أيضا نلاحظ لطف الخطاب من الابن لوالده وجمال المناداة ((يا أبتاه أوصني)) أي أريد منك وصية جامعة أنتفع بها . قال ((يا أبتاه أوصني)) وعادةً من دنت منيته تكون وصيته من أبلغ الوصايا وهي ما يسمى بوصية المودع ، في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه قال : «وعظنا رسول الله

صلى الله عليه وسلم موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقلنا يا رسول الله كأنها وصية مودع فأوصنا»، فوصية المودع لها وقع كبير وتتناول جوامع الخير بحسب نصح المودع وحاله من العلم والفهم .

قال: ((**يا أبتاه أوصني واجتهد لي**)) أي في الوصية أريد شيئا جامعًا ، أمرًا أفوز بتحقيقه بخيري الدنيا والآخرة ، أعطني كلامًا جامعا جامعًا توصيني به أحافظ عليه واجتهد لي في هذه الوصية .

فقال عبادة رضي الله عنه : ((**أجلسوني**)) ؛ وطلبه رضي الله عنه لأن يجلس لكي يوصي ابنه هذا من اهتمامه بالأمر وعنايته به رضي الله عنه ، كان بإمكانه أن يوصي ابنه وهو في حال اشتداد المرض وهو مستلقٍ على ظهره ، لكن من شدة اهتمامه بالأمر وعنايته به طلب أن يُجلس قال أجلسوني . وقوله رضي الله عنه «أجلسوني» فيه دلالة على شدة التعب الذي كان عليه ، لو لم يكن في معاناة وتعب شديد لما طلب أن يُجلس وإنما يجلس بنفسه ، لكن من شدة الإعياء والتعب قال أجلسوني .

فلما أجلسوه ((**قال : يا بني**)) وهذا أيضا فيه لطف الخطاب من الوالد لولده «يا بني» ، وأجمل ما ينادي به الوالد ولده هي هذه الكلمة ، فهي أرق كلمة وأجمل كلمة من والد لولده «يا بني» ، وهي أفضل من مناداة الابن باسمه أو مناداته بألفاظ أخرى تكثر على ألسنة بعض الناس يا ولد أو يا غلام أو يا طفل أو يا جاهل أو بعضهم يأتي بعبارات قاسية في مناداتهم لأولادهم وبنيهم .

قال : ((**يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان ولن تبلغ حقيقة العلم بالله تبارك وتعالى حتى تؤمن بالقدر خيره وشره**)) وهنا ينبغي أن نلاحظ قيمة الإيمان بالقدر في تحقيق السعادة في حياة الإنسان ، وذلكم أن الوليد بن عبادة طلب من والده في هذا المقام وصية جامعة وأراد من والده أن يجتهد في ذلك ، فلم يزد والده في وصيته له على ذكر الإيمان بالقدر والتأكيد عليه وبيان أهميته وأنه أصلٌ عظيم وأساسٌ متين ؛ فهذا يفيدنا أن الوصية بالإيمان بالقدر من جماع الوصايا ومن أعظم أسباب السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة ، بل لا سعادة للمرء في دنياه وأخراه إلا بالإيمان بالقدر كله خيره وشره من الله تعالى .

قال: ((**يا بني إنك لن تذوق طعم الإيمان**)) وهذا فيه أن الإيمان له طعم وله حلاوة وله ذوق ، وليس كل أحد يذوق طعم الإيمان ، بل لذوق طعم الإيمان أسس لابد منها ومسالك لابد من سلوكها ، وقد نبَّه عبادة رضي الله عنه أن الإيمان بالقدر من أعظم ما يكون به ذوق طعم الإيمان وذوق حلاوة الإيمان ، الإيمان له حلاوة له ذوق له طعم ، ومن أسباب ذوق طعم الإيمان والإحساس والشعور بحلاوة الإيمان: إيمان العبد بالقدر .

قال: ((**إنك لن تجد طعم الإيمان ولن تبلغ حقيقة العلم بالله حتى تؤمن بالقدر**)) ؛ لاحظ هنا أن عبادة بن الصامت رضي الله عنه نبه على عظم شأن الإيمان بالقدر وعظم مكانة الإيمان بالقدر في الدين من جهتين :

- الجهة الأولى : أن الإيمان بالقدر يذاق به طعام الإيمان ، ولا يذاق طعم الإيمان إلا بالإيمان بالقدر ؛ بمعنى أن من لا يؤمن بالقدر لا يذوق طعم الإيمان ولا يجد حلاوة الإيمان ، فهذا مما يبين مكانة الإيمان بالقدر في دين الله تبارك وتعالى وأن حلاوة الإيمان وذوق طعمه لا يمكن أن ينال إلا بالإيمان بالقدر .
- الأمر الآخر الذي بيَّن به عبادة بن الصامت رضي الله عنه مكانة الإيمان بالقدر في دين الله عز وجل بقوله «ولن تبلغ حقيقة العلم بالله تبارك وتعالى» ، يعني لن تكون من أهل العلم بالله حقيقة إلا إذا آمنت بالقدر ، لن تكون من أهل العلم بالله والمعرفة به سبحانه وتعالى إلا إذا كنت من أهل الإيمان بالقدر ، وكيف يكون عارفًا بحقيقة العلم بالله من يجحد أقداره سبحانه وتعالى !! والقدر قدرة الله ، ومن جحد القدر جحد قدرة الله ، فكيف يكون عارفًا بالله وعالما به من يجحد أقداره أو يشك بها !! ولهذا بيَّن رضي الله عنه أنه لن يبلغ أحدٌ حقيقة العلم بالله تبارك وتعالى إلا إذا آمن بالقدر ، وقد قال الله سبحانه وتعالى في آخر آية من سورة الطلاق ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢) ﴾ ، أين إيمان الإنسان بالله تبارك وتعالى خالق هذا الكون ومبدع هذه الكائنات من لا يحقق الإيمان بأنه تبارك وتعالى على كل شيء قدير وأنه تبارك وتعالى قد أحاط بكل شيء علما ، وهذا هو الإيمان بالقدر ، فكيف يكون مؤمنًا بالله عارفًا به محققًا العلم به تبارك وتعالى من لا يؤمن بالقدر خيره وشره من الله تبارك وتعالى!! .

قال: ((**يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان ولن تبلغ حقيقة العلم بالله تبارك وتعالى حتى تؤمن بالقدر خيره وشره**)) «حتى تؤمن بالقدر خيره وشره» : أي ما يقدَّر من أمور خيرٍ أو ما يقدَّر من أمور شر ، أمور الخير مثل الطاعات وأبواب البر وعموم المنافع والمصالح ، والشر أضداد ذلك من الكفر والفسوق والفجور والآثام وغير ذلك ، فمن لا يؤمن أن كل شيء بقدر الخير والشر لن يبلغ حقيقة الإيمان ولن يبلغ حقيقة العلم بالله تبارك وتعالى ، لأن من لا يؤمن بالقدر من لازم عدم إيمانه بالقدر ادِّعاء وجود خالق مع الله تبارك وتعالى ، ولهذا قال أئمة العلم عن القدرية النفاة –نفاة القدر– قالوا إنهم مجوس هذه الأمة لأن المجوس قالوا بوجود خالقين ، والقدرية النفاة أيضا يقولون بوجود خالقين ؛ الله عز وجل خالق الإنسان والإنسان خالق فعل نفسه ، لأن إذا لم تكن أفعال العباد مقدَّرة ومخلوقة لله تبارك وتعالى يكون بزعم هؤلاء خالقها الإنسان ، فادَّعوا بذلك وجود خالق مع الله سبحانه وتعالى فكان بهم شبهٌ بالمجوس ، فلا يذوق العبد طعم الإيمان وحلاوته ولا يبلغ حقيقة العلم بالله تبارك وتعالى إلا إذا آمن بالقدر خيره وشره من الله تعالى ، الأمور كلها بقدر ، وهذا الكون والخلق خلق الله سبحانه وتعالى ولا يمكن أن يقع في هذا الكون شيء لا يشاؤه الله ولا يقدِّره كونًا سبحانه وتعالى الملك ملكه والخلق خلقه جل وعلا .

قال : ((**يا أبتاه**)) والآن سيسأل الوليد سؤالًا من أجمل السؤالات في هذا الباب ، قال : ((**يا أبتاه وكيف لي أن أعلم ما خيرُ القدر وشرُّه ؟ قال : تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليُخطئك**)) أي أن الأمور كلها بتقدير الله عز وجل ، ما أصابك أي: من غنى من صحة من عافية من إيمان من طاعة من صلاة من صيام من معصية أي شيء أصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك كل ما قدّر لك وكتب أن يقع منك لا يمكن أن يتخلف ، لأن الله سبحانه وتعالى لا معقب لحكمه ، ما أصابك من مصيبة من بلاء من مرض من سقم من نازلة لا يمكن أن تخطئك كتبها الله عليك ، ولهذا سيأتي معنا في حديث أبي هريرة ((لا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا ، ولكن قل قدَّر الله وما شاء فعل)) لأن القدر إذا وقع لا مناص عنه ولا مفر منه ، ما أصابك لم يكن ليخطئك ، ولا تفتح على نفسك في هذا المقام باب الشيطان ((واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك)) أي ما أخطأك من الأمور التي تطلبها مثلا أو تسعى في نيلها فلم تظفر بها ولم تحصّلها لم يكن ليصيبك ، أيضا ما أخطأك من الحوادث والمصائب والنوازل والكوارث فسلمت لم يكن ليصيبك لماذا؟ لأن القدر خيره وشره من الله تبارك وتعالى وبيد الله عز وجل ، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ﴾ [فاطر:٢] ، وفي وصية النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله عنهما قال : ((احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك ، ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف)) .

وهذا الإيمان بالقدر يعطي العبد طمأنينة ويُكسب قلبه سكونا وراحة ويبعد عنه قلق قلبه واضطرابه ، لأن هذه أمور مكتوبة ومقدَّرة ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن:١١] ، تأمل فائدة الإيمان بالقدر ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ قال علقمة رحمه الله تعالى في بيانه لهذه الآية : «هو المؤمن تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلِّم» ، يعلم أنها من عند الله أي مقدرة ومكتوبة لا مناص منها ولا مفر فيرضى ويسلِّم . ولهذا المؤمن بالقدر عندما يصاب بالمصيبة يسلو عندما يعلم أن هذه أمور مقدرة ومكتوبة ولا مفر منها ولا مناص ويسعى في طلب ثواب الصابرين قال عليه الصلاة والسلام : ((عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ)) المؤمن بالله وبأقداره سبحانه هو الذي يظفر بثواب الصابرين في المصائب وثواب الشاكرين في الطاعات والنعم والمنن ، فهو في المصيبة صابر وفي النعمة حامد شاكر ، وهذا لا يكون إلا للمؤمن ، المؤمن بالله والمؤمن بأقدار الله عز وجل والمؤمن بأن الفضل بيد الله عز وجل يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

قال : ((**يا بني إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أول ما خلق الله القلم ، قال: اكتب ، فيجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة**)) أول ما خلق الله القلم أمَرَه بالكتابة ، والعرش خُلق قبل القلم ، قد مر معنا سابقا قول النبي صلى لله عليه وسلم ((وكان عرشه على الماء)) ، فعرش الرحمن خلقه قبل خلق القلم ، لكن قوله هنا ((أول ما خلق الله القلم)) يحتمل أن الأولية تتعلق بالكتابة أي أول ما خلقه أمَرَه أن يكتب ، عند أول خلقه أمره بالكتابة . أو أن هذه الأولية تتعلق بهذا العالم السماوات والأرض والجبال وغير ذلك من مكونات هذا العالم، فأول ما خلق الله تبارك وتعالى القلم قال له اكتب؛ أي أمره بالكتابة .

خلق الله عز وجل القلم وأوجده بعد أن لم يكن وأمره أن يكتب ، يكتب ماذا ؟ يكتب أي شيء؟ ولنلاحظ أن خلق القلم دل حديث عبد الله بن عمرو بن العاص المتقدم في أول هذه الترجمة كان قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، لأن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم ((إن الله كتب مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة)) ، فخلْق القلم كان قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة خلقه الله سبحانه وتعالى ولما خلقه أمَره أن يكتب ((قال اكتب)) ، جاء في بعض الأحاديث ((قال القلم وماذا أكتب؟ قال الله عز وجل: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة)) .

((**فجرى القلم كتابة بما هو كائن إلى يوم القيامة**)) وجفت الصحف بما كتب فيها جفت الأقلام ورفعت الصحف، كتب القلم وجفت الكتابة بما هو كائن إلى يوم القيامة .

وانتبه هنا للحديث المتقدم ((رفعت الأقلام وجفت الصحف)) عندما يقال لك أمر كتب والحبر جف والصحف طويت ماذا تفهم من هذا ؟ أي شيء تفهم منه ؟ أن الأمر منتهي ؛ جفت الأقلام والصحف رُفعت بما هو كائن إلى يوم القيامة ، والله الذي لا إله إلا هو ولا رب سواه إن جلوسنا هذا الآن كُتب في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، كتبه الله جل وعلا قال للقلم اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة فكتب وجرى القلم بما هو كائن ، من صغير أو كبير ، من دقيق أو جليل ، من أفعال من حركات ، من موت أو حياة ، من مرض أو سقم من قيام أو قعود إلى غير ذلك كُتب ؛ وهذا كله يدلنا على عظمة الخالق سبحانه وتعالى وكماله وكمال قدرته وإحاطة علمه سبحانه وتعالى ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤] . خلْق هذه المخلوقات وإيجاد هذه الكائنات وحده دليلٌ على إحاطة علم الله بها وكمال قدرته عليها ، قد مر معنا الآية الكريمة قول الله سبحانه وتعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢] ، فالخلق دليلٌ على إحاطة العلم وكمال القدرة والتقدير .

قال : ((**اكتب ، فيجري في تلك الساعة** -أي التي كتب فيها القلم- **بما هو كائن إلى يوم القيامة**)) فكل ما كان وما يكون وكل أفعال الآدمين وحركاتهم وسكناتهم وقيامهم وذهابهم ورواحهم كل ذلك كُتب ، كل ما هو كائن إلى يوم القيامة كتب في اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠] ، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ [القمر:٥٢-٥٣] .

قال: ((**يا بني إن متَّ ولست على ذلك دخلت النار**)) وهذا أمرٌ ثالث بيَّن فيه عبادة رضي الله عنه مكانة الإيمان بالقدر في دين الله ، وأن من يموت غير مؤمن بالقدر يدخل النار ، لأن من لا يؤمن بالقدر لا يؤمن بالله ، ومن لا يؤمن بالله ليس له مصير إلا النار ، ولا ينتفع بعمل ولا يستفيد من طاعة وإن صلى وصام وتصدق كل هذه لا تفيده ولا ينتفع بها كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة:٥]، إذا كفر الإنسان بالإيمان وبأصول الإيمان وبأركان الإيمان يحبط عمله ويبطل حتى وإن كثرت طاعاته وتعددت عباداته وتنوعت ، فالكفر مانعٌ من قبول الأعمال والإيمان أساس لقبوله ، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٩] ؛ فمن لا يكون مؤمنًا لا يكون سعيه مشكورا ؛ أي مقبولا مرضيا عند الله تبارك وتعالى . وقال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ [التوبة:٥٤] ، وقال تعالى : ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣] .

فالعمل لا يتقبل إلا إذا أقيم على الإيمان وبُني عليه ، ولهذا قال رضي الله عنه وأرضاه: ((**يا بني إن مت ولست على ذلك دخلت النار**)) ؛ إن مت ولست على ذلك أي لست على الإيمان بالقدر خيره وشره من الله تعالى وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، إن مت على غير ذلك دخلت النار .

وهذا يبين لنا اهتمام السلف رحمهم الله تعالى بأمر القدر وشانه والوصية به والعناية به وأيضا يفيدنا فائدة عظيمة جدا ألا وهي: ضرورة تربية الأبناء وتنشئتهم على الإيمان بالقدر وأن الأبناء يربون على ذلك وينشؤون عليه ، حتى ينشأ الناشئ فينا قوي الصلة بالله تبارك وتعالى ، قوي الالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى ، ويعلم أن الأمور كلها بيده وأنها بتدبيره وتسخيره وأن الحكم لله تبارك وتعالى ، وهذا أمرٌ لا يكلف الوالد شيئا لأنه أمرٌ فُطر عليه أناس ، فُطروا على الإيمان بالله فطروا على قبول هذه المعاني والرضا بها ، ((كل مولود يولد على الفطرة)) ، قال الله تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ

النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم:٣٠] ، في الحديث القدسي قال الله تعالى : ((خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ)) .

ولهذا تربية الأبناء على هذه الأصول العظيمة ليس أمرًا شاقًا بل هو من السهولة بمكان ، لأنه يوافق فطرهم ويمشي مع الفطرة ، وفطرته تدعوه إلى ذلك وتقبل ذلك وترضى به ، بينما إدخال أباطيل أهل الكلام وأضاليل أهل الفلسفة ونحو ذلك من الخرافات والخزعبلات هذه أمور تُحشر على الناس وتزاحم الفطَر وتؤدي إلى انحرافها وضياعها وبُعدها عن الجادة السوية ، فتربية الأبناء وتنشئتهم على الإيمان بالقدر من الأمور العظيمة المهمة التي ينبغي أن يُنشئ عليها الصغار ، والصغار نشؤوا وفُطروا على الإيمان بالله والرضا بما قدَّر وبما حكم سبحانه وتعالى ، ويكفي الصغير تربية له أن يقال هذا تقدير الله هذا حكم الله ؛ فيأخذه رأسًا بالقبول ما لم يُبتلى بمن يحرف فطرته والعياذ بالله .

وأذكر من القصص اللطيفة الطريفة أحد الآباء أخبرني عن ابنه الصغير الذي عمره كان إذ ذاك لا يبلغ خمس سنوات أو ست سنوات ، يقول توفيت جدتنا وصلَّينا عليها وأخذناها لندفنها ، والجدة عندهم في البيت يراها الطفل ويجلس معها وتحكي له القصص وتداعبه وتؤانسه ويحبها ، ثم يمشي هذا الصغير مع جنازة جدته ويصلَّى عليها ثم لما وصل إلى المقبرة وإذا بهم ينزلون جدته ومحبوبته في التراب في الأرض ثم يهيلون التراب عليها ، فكان هذا الأمر بالنسبة له أمر مفزع ، يقول الوالد فالتفت إليَّ ابني في ذلك الموقف وهم يدفنون التراب قال لي لماذا يا أبي؟ لماذا جدتي هكذا يدفنون عليها التراب؟ لماذا توضع في هذا المكان ويدفنون عليها التراب؟ يقول الأب لما سألني ابني هذا السؤال تزاحمت في ذهني أجوبة أريد جوابا سريعًا جيدا أشفي به غليل ابني في سؤاله ، يقول فأخذت أبحث عن جواب مناسب يقنع ابني في هذه اللحظة ، يقول وأنا أشغل بالي في البحث عن الجواب التفت إلي ابني ثانية وقال لي : ولا الله قال هذا ؟ يعني ولا الله أمر بهذا ؟ قلت نعم الله أمر ، قال خلاص ، إذًا هذا أمر الله يعني فيه خير فيه بركة .

فالصغار هؤلاء تربيتهم على أمور الإيمان وحقائق الدين وأصوله أمور توافق فطرهم ويتلقونها بالقبول ، يكفي الصغير أن يعلم أنه أمر الله ، عندما يقال له هذا أمر الله رب العالمين الذي خلقنا وأوجدنا ، والله عز وجل لا يأمر إلا بخير، وله الحكمة البالغة سبحانه وتعالى ، ويربى وينشأ على هذه المعاني . فنحن نستفيد من هذا الأثر العظيم أهمية تربية الأبناء على هذه الأصول العظيمة .

الأمر الآخر أن من يوصي أبناءه تكون وصيته بمثل هذا ؛ يذكر الكلام مضمومًا إليه دليله ، مثل ما صنع عبادة بن الصامت ، ذكر له الكلام وذكر له أهمية الإيمان بالقدر ومكانته وذكر له الدليل قال : ((سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم)) ، ولهذا يحتاج أيضا الأبناء عندما يربَّون على الفضائل والمعاني العظيمة أن تُذكر الأدلة ، بعض الآباء يذكر لابنه الفضائل ويحثه عليها تارة بالزجر مثل "إن لم تفعل ضربتك" أو مثل هذه المعاني ، أو يقول

"إن لم تفعل فأنت كذا وكذا من الألفاظ القاسية" ، بينما مقام التربية ومقام التعليم يقتضي مثل هذا البسط تُذكر المعاني والتعليلات والتذليلات وتوضَّح حتى يأخذ الأمر مأخذا عظيما في قلب الموصى بخطاب لطيف وبكلمات بينة كما هو مشاهد وملاحظ في هذه الوصية العظيمة من عبادة بن الصامت رضي الله عنه لابنه الوليد رحمه الله تعالى .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي خزامة عن أبيه رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله أرأيت رُقى نسترقيها ودواءً نتداوى به وتُقاةً نتقيها هل تردُّ من قدر الله شيئاً ؟ قال : ((هي من قدر الله)) رواه أحمد والترمذي وحسنه .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث حديث أبي خزامة عن أبيه رضي الله عنه قال : ((**قلت يا رسول الله أرأيت رُقى نسترقيها ودواءً نتداوى به وتُقاةً نتقيها هل تردُّ من قدر الله شيئاً؟**)) هذا سؤال جميل جدًا في باب الإيمان بالقدر، يسأل هذا الصحابي الجليل النبي عليه الصلاة والسلام عن الأدوية التي يتداوى بها الناس ، من يجد مثلا شيء من الألم في بطنه فيأخذ عشبًا معروفا أنه يفيد في هذا الوجع ، أو تقاةً يتقيها وهذا يتناول كل ما يفعله الإنسان ليتقي به ، مثل أن تتقي البرد بالألبسة الشتوية أو الشمس بالاستظلال ، أو رماح العدو ونبله بالترس ونحو ذلك ، هذه الأشياء التي تأخذها للاتقاء اتقاء البرد أو اتقاء الشمس أو اتقاء النبل أو نحو ذلك هل ترد من القدر؟ القدر المكتوب هل هي تمنعه ؟ هل الدواء يمنع القدر؟ هل الترس يمنع القدر؟ هل الرقية التي نسترقيها هل تمنع القدر؟ كأنه يقول: إذا كان الأمر مقدَّر ومكتوب فما الحاجة إلى هذه الأمور؟ هي لا تمنع القدر ولا ترد القدر وما كُتب كائن لا محالة فما الحاجة إليها ؟ مثل ما جاء في الحديث المتقدم قال علي رضي الله عنه :«ألا نتكل على القدر وندع العمل؟» طالما أن الأمور كُتبت وقدِّرت ألا نتكل على القدر وندع العمل؟ ، فهنا يسأل هل هذه الأشياء ترد من القدر شيء؟ هي لا ترد من القدر شيئا ، المكتوب كائن لكن أنظر إلى جواب النبي عليه الصلاة والسلام ما أعظمه.

قال : ((**يا رسول الله أرأيت رقى نسترقيها**)) رقى: جمع رقية مثل ظُلَم جمع ظُلمة ، ((**ودواء نتداوى به**)) أي الأدوية التي نستعملها ونفيد منها ، ((**وتقاة نتقيها**)) أي ما نتقي به الحر أو الشمس أو النبل أو نحو ذلك ((هل ترد من قدر الله شيئا)) ؟

قال : ((**هي من قدر الله**)) وهذا من أجمل ما يكون وأعظم ما يكون جوابا على هذا السؤال ، قال هي من قدر الله : أي أن الله عز وجل قدَّر أن فلانا من الناس يمرض بالمرض الفلاني أنه يتناول العشب الفلاني أو الدواء الفلاني ويشفى ، قدَّر أيضا أن فلان من الناس يمرض وأنه يقرأ على نفسه بفاتحة الكتاب ويُشفى ويبرأ ، هي من

قدر الله، الرقية من قدر الله ، والتقاة من قدر الله، والاستشفاء من قدر الله ،كل ذلك من قدر الله سبحانه وتعالى .

فإذًا هذا يدل على أن فعل الأسباب من الإيمان بالقدر ، بل يفيد أن الإنسان لا يبلغ حقيقة الإيمان بالقدر إلا إذا فعل الأسباب غير معتمدٍ عليها بل يتوكل على الله جل وعلا ، لكن فعل الأسباب ذاته من الإيمان بالقدر ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام :((هي من قدر الله)) . ولهذا لا تُعطل الأسباب بل تُفعل الأسباب ، والأسباب ذاتها من قدر الله تبارك وتعالى ، ومن مقتضيات وتمام الإيمان بالقدر أن يباشر الإنسان الأسباب ، ولهذا يقول أهل العلم فيمن يعطل الأسباب مثل من يقول "إن قدَّر الله لي ولد وكتب لي ولد يكون ، وأما أنا لن أتزوج النساء إلى أن أموت"، أو يقول "إن كتب الله سبحانه وتعالى لي أن أكون من العلماء الكبار المحققين سأكون ، لكن لن أطلب العلم ولن أجلس عند عالم ولن أقرأ كتابا وإن كان الله كاتب لي العلم وأن أكون عالما سأكون" !!

تمنيت أن تمسي فقيها مناظرًا بغير عناء والجنون فنون

وليس اكتساب المال دون مشقة تلقيتها فالعلم كيف يكون!!

يعني لابد أن يبذل الإنسان له سببه ، ويلاحظ أن بعض الناس قضية فعل السبب يُعملها فيما يحب ويهملها فيما لا تميل نفسه إليه ، إذا جاء باب الطعام والشراب والأكل وأنواع المأكولات والمشروبات تجده يبذل الأسباب ، وإذا جاءت الحقائق الشرعية والأمور التي فيها سعادة الآخرة تجده يقابلها في فتور ويقول إن كان الله كاتب لنا خير من هذه الأمور سيحصل ، أما فيما يتعلق بطعامه وشرابه والأمور التي تميل إليها نفسه فإنه يباشر فيها الأسباب .

قال : ((**يا رسول الله أرأيت رقى نسترقيها ودواء نتداوى به وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئا؟ قال هي من قدر الله**)) وهذا فيه أيضا مشروعية التداوي ، كما صح في الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام ((تَدَاوَوْا عِبَادَ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُنَزِّلْ دَاءً، إِلَّا أَنْزَلَ مَعَهُ شِفَاءً عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ)) فالتداوي مشروع ولا ينافي الإيمان بالقدر ، والرقى أيضا مشروعة ولا تنافي الإيمان بالقدر ، كون الإنسان يرقي نفسه إذا مرض لا ينافي الإيمان بالقدر ، لكنَّ طلب الرقية من الآخرين تنافي تمام التوكل ، ولهذا ذكر النبي عليه الصلاة والسلام في السبعين ألف قال : ((هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون)) طلبهم من الغير الاسترقاء .

قال: ((**أرأيت رقى نسترقيها**)) إذا كان المراد بذلك رقية الإنسان لنفسه فالأمر واضح ، وإذا كان المراد بـ«نسترقيها» أي نطلبها من الآخرين فهذا أمر مباح لكنه خلاف الأولى ، والحديث يدل ان هذا الأمر المباح الذي هو خلاف الأولى هو من القدر ، كون الإنسان يطلب من غيره أن يرقيه أو أن يقرأ عليه هذا أمرٌ مباح ليس أمرًا محرما ولكنه خلاف الأولى ، ولهذا في الحديث حديث عمران بن حصين في مجلس سعيد بن جبير

حصين بن عمران لما لدغته العقرب قال ما صنعت؟ قال «ارتقيت» ، قال : «قد أحسن من انتهى إلى ما قد سمع» ثم ساق الحديث وفيه قول النبي صلى الله عليه وسلم ((لا يسترقون)) ، فقوله «قد أحسن من انتهى إلى ما قد سمع» يدل على أن الاسترقاء مباح لكنه خلاف الأولى ، الأولى أن لا يطلب الإنسان من الآخرين أن يرقوه وأن يكتفي برقيته لنفسه والتجائه إلى ربه تبارك وتعالى .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن ؛ فإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدَّر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان)) رواه مسلم .

****

ثم ختم المصنف رحمه الله تعالى هذه الترجمة بهذا الحديث حديث أبي هريرة رضي الله عنه وأرضاه ، وختْم الترجمة بهذا الحديث من جمال الختم ، لأن ما سبق فيه تقريرٌ وتدليل إلى ان الأمور كلها بقدر الله ، وأيضا ذكر التقديرات التقدير العمري والتقدير العام إلى آخر مما مر معنا في الأحاديث التي ساقها المصنف ؛ فناسب ختْم الترجمة بهذا الحديث العظيم الذي فيه الأمر بمباشرة الأعمال وفعل الأسباب والحرص على النافع من الأمور ومجاهدة النفس على ذلك ، لا أن يتكل الإنسان على القدر ويعطل العمل ، فختَم الترجمة بهذا الحديث تنبيهًا على أن من كمال وتمام الإيمان بالقدر مباشرة الأسباب وفعلها .

قال : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف**))؛ المؤمن القوي أي في إيمانه وطاعته لله تبارك وتعالى وقيامه بشعب الإيمان وخصال الدين ، لأن الإيمان كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام ((بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من شعب الإيمان)) ، فقوة الإيمان من قوة تحقيق هذه الشعب وكمال تحقيقها . فكلما كان العبد أعظم تحقيقًا لها وتتميما لها كان ذلك أقوى في إيمانه ، وكلما كان أقل كان ذلك أضعف في إيمانه.

وهذا من الشواهد والدلائل الواضحات على أن الإيمان يزيد وينقص ويقوى ويضعف ، وأن أهله ليسو فيه سواء ؛ منهم قوي الإيمان ومنهم ضعيف الإيمان ، قال تعالى ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر:٣٢] ليسو على درجة واحدة بل بينهم تفاوت . وهنا بيَّن النبي عليه

الصلاة والسلام التفاوت في الإيمان بين أهل الإيمان؛ مؤمن قوي ومؤمن ضعيف ، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف .

وقوله ((**أحب إلى الله**)) فيه إثبات صفة المحبة لله تبارك وتعالى وأنه يحب جل وعلا ، وأن حبه تبارك وتعالى يزيد لمن زاد إيمانه وقوي دينه ، قال: ((أحب إلى الله من المؤمن الضعيف)) فهذا فيه تفاضل محبة الله عز وجل للناس بحسب تفاوتهم في الإيمان وخصاله وأعماله .

قال: ((**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍ خير**)) وهذه الجملة في الحديث قوله «وفي كل خير» إيرادها هنا من أنفع ما يكون ؛ حتى لا يظن بضعيف الإيمان أنه لا خير فيه ، بل المؤمن الضعيف فيه خير ما دام أن الإيمان عنده محافظًا على إيمانه حتى مع الضعف ففيه خير . قال ((المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير)) أي في قوي الإيمان وفي ضعيف الإيمان في كل منهما خير ، لكن الخير الذي عند قوي الإيمان أكثر وأعظم وأوفر من الخير الذي عند ضعيف الإيمان .

قال: ((**احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن**)) ؛ احرص على ما ينفعك وهذا فيه الدعوة إلى فعل الأسباب ومباشرتها وعدم تعطيلها اتكالا على القدر ، «احرص على ما ينفعك» أي كن حريصا تمام الحرص على كل نافع لك ، «واستعن بالله» أي كن متوكلا عليه طالبا عونه ومدَّه تبارك وتعالى لا أن تكون متكلا على الأسباب التي تباشرها ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بفعل الأسباب وفي الوقت نفسه أمر بالاستعانة بالله تبارك وتعالى وحسن الالتجاء إليه تبارك وتعالى .

وقوله صلوات الله وسلامه عليه ((**احرص على ما ينفعك واستعن بالله**)) يتضمن الوصية بأمور ثلاث لابد منها في هذا الباب :

- الأمر الأول : الحرص ، والحرص أمر يكون في القلب ؛ رغبة وهمة وتطلع للأمور النافعة ، بأن يكون القلب له حرص له رغبة في الأمور النافعة المفيدة .
- والأمر الثاني الذي يتناوله هذا الحديث: سلوك مسالك الأمور النافعة ؛ أي السير في طلبها وتحصيلها .
- والأمر الثالث: الاستعانة بالله تبارك وتعالى ؛ أن تحرص على الخير ، وأن تسلك مسالكه ، وأن تطلب عون الله تبارك وتعالى على تحقيقه .

فمن حرص دون سلوكٍ لمسالك الخير وبذلٍ لأسبابه هذا عجز وتوانٍ وفتور ، ومن حرص وسلك مسالك الخير ولم يلتجئ إليه تبارك وتعالى تكون عاقبته إلى الحرمان والخسران ، ولا يتحقق للإنسان الخير إلا بالحرص وبذل الأسباب والتوكل على الله تبارك وتعالى ؛ فهذه أصول عظام أرشد إليها هذا الحديث في هذا الباب العظيم .

وقوله ((**احرص على ما ينفعك**)) يتناول كل نافع من الأمور الدينية والدنيوية ، ليس خاصا بالأمور الدينية بل يتناول كل نافع من الأمور الدينية والدنيوية ؛ ((احرص على ما ينفعك)) أي في دينك ودنياك ؛ أما النافع في

الدين فحرصك عليه ببذل الأسباب في طلب الرزق ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾[الملك:١٥] ، لا يليق بالمؤمن أن يبقى مكتوف الأيدي في بيته ينتظر أن يأتيه رزقه في مكانه ، بل يبذل السبب ويذهب إلى السوق ويعمل ويباشر الأعمال فيما يميل إليه من مجالات من زراعة من صناعة ،من حرث، من بيع، من شراء، من عمل، من حمل ، إلى غير ذلك يبذل السبب ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾؛ أمر بالمشي الذي هو السعي في طلب الرزق ، قال ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾فأمر تبارك وتعالى ببذل الأسباب فيحرص الإنسان على ما ينفعه.

وهنا قوله ((**على ما ينفعك**)) فيما يتعلق بالأمور الدنيوية ؛ فيه تنبيه على البعد عن الحرام ، لأن المحرمات تضر الإنسان ولا تنفعه ولم يحرِّمها الله عز وجل وينهى عباده عنها إلا لما فيها من المضرة عليهم والوبال عليهم في دنياهم وأخراهم ، ولهذا قوله ((احرص على ما ينفعك)) فيه التنبيه إلى الحرص على الأمور النافعة الدنيوية الطيبة البعيدة عن الحرام والبعيدة أيضا عن الشبهات ، قال عليه الصلاة والسلام : ((إن الحلال بيِّن، وإن الحرام بيِّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه)) إلى آخر الحديث .

ويتناول قوله ((على ما ينفعك)) الحرص على الأمور الدينية ؛ احرص على ما ينفعك في دينك ، والحرص على ما ينفع في الدين يتناول أمرين يجتمع فيهما الدين وهما: العلم النافع والعمل الصالح . ((احرص على ما ينفعك)) هذا فيه دعوة لك إلى أن تحرص على ما ينفعك في دينك وهذا يتناول العلم النافع والعمل الصالح ، فتحرص على ما ينفعك في دينك من العلوم النافعة ، ولهذا ينبغي أن يكون للإنسان حظٌ ونصيب من العلم في كل أيامه ، أين الحرص على ما ينفع الإنسان في دينه ممن يمر عليه الأيام تلو الأيام بل الشهور تلو الشهور ولم يجلس ساعة يطلب فيها علما ينفعه في دينه !! بل مضى حياته وأيامه بل بعض الناس مضى سنوات من عمره ولا جلس يطلب علمًا أو يتفقه في دينه ! عنده وقت يجلس مع زملائه الساعات الطوال للضحك واللعب والسمر وليس عنده وقت يجلس ساعة واحدة يطلب فيها علما .

قال ((احرص على ما ينفعك)) أي الأمور التي تنفعك في دينك من العلوم النافعة احرص عليها ؛ قال الله قال رسوله ، اجلس تعلم العلم تفقه في دينك فهذا أمر يُطلب منك داخلٌ تحت قوله عليه الصلاة والسلام ((احرص على ما ينفعك)) ؛ ولهذا ينبغي عملا بهذا الحديث وتحقيقًا له أن يجعل المسلم لنفسه برنامجا في العلم يومي ولو كان قليلا ، لكن لا ينبغي أن يمر عليه اليوم ولا يحصل فيه علما تغيب شمس اليوم دون أن يحصل فيه علما ينفعه في دينه، مع أنه عنده جهل في جوانب كثيرة من الدين ثم يغرب عليه شمس يوم من أيامه ولا يحصِّل فيه علما هذا

من الحرمان ، بل كان بعض المتقدمين يبكي إذا غربت الشمس ويلوم نفسه كيف غربت وهو لم يغنم في يومه مغانم كبيرة، ومن الناس من تغيب شمسًا تلو أخرى ولا يحصل فيها ولا حرفًا من العلم ! هذا حرمان .

ولهذا ينبغي للإنسان أنه يجعل لنفسه برنامج مع العلم ينفعه الله سبحانه وتعالى به ، ومن أعظم ما يوصي به أهل العلم للمبتدئ «الأربعين النووية» للإمام النووي رحمه الله تعالى ؛ فهذا كتاب مبارك وعظيم النفع وكبير الفائدة ، ولو جعل كل واحد منا لنفسه برنامجا مع الأربعين يحفظ في اليوم حديثًا واحدًا حفظا متقنًا لا يمضي عليه اثنين وأربعين يوم لأن عدد أحاديثه اثنين وأربعين حديثا لا يمضي عليه اثنين وأربعين يومًا إلا وأنهاها ، لو جعل لنفسه برنامجا في كل ثلاثة أيام يحفظ حديثا واحدا لا تمر عليه سنة إلا والأربعين من محفوظاته ، فيعتني بها ويعتني أيضا بالكتب التي ألفها أهل العلم يتدرج فيها مثل: «الأصول الثلاثة» ، و«كتاب التوحيد» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، «كتاب العقيدة الواسطية» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، «كتاب عمدة الأحكام»، و«كتاب بلوغ المرام»، ومثل هذه الكتب النافعة العظيمة المفيدة يجعل لنفسه فيها برنامجا يحصِّل فيها علما . وقليلٌ يستمر تظهر ثمرته فيما بعد ، ترى الثمر بعد سنة سنتين ثلاث سنوات ، وكثير من الناس عندما لا يرى الثمرة مبكرة يترك المواصلة ، لكن تستمر على قليل تحصل خيرا. أنا أعرف مجموعة من الشباب كانوا يجتمعون يوم الاثنين يصومون ثم يجتمعون يفطرون سويًا ويسمِّعون لبعضهم نصف صفحة من القرآن الكريم لكنهم ثابتين على ذلك ومضوا عليه يسمِّعون لبعضهم نصف صفحة ، وسألتهم قبل وقت قالوا انتهينا من نصف القرآن الآن ويسمِّعون نصف صفحة ومعهم أحد طلبة العلم يفسر لهم الآيات ويبين لهم معانيها ودلالاتها ويفقههم فيها ؛ فيحفظونها ويعرفون معانيها كل اثنين نصف صفحة عبر سنوات تأتي النتائج .

المهم أن الإنسان يكون له حرص على ما ينفعه ويكون له حظ من هذا الحرص ولو شيئا قليلا ، أما أن لا يكون حريصا على ما ينفعه من أمور دينه هذا على خطر عظيم ، بل ينبغي أن يكون له حظ على ما ينفعه في دينه ولو شيئا قليلا ، برنامج يومي ولو قليل تستمر عليه سترى الثمرة بإذن الله تبارك وتعالى الكبيرة ولو بعد حين ، أما إذا بقي الإنسان معطلًا عن الحرص حارًما نفسه الخير تمضي عليه الأيام وهو لا يزداد إلا جهلا ولا يزداد من الخير إلا بعدا والعياذ بالله .

أيضا يشمل الحرص على ما ينفع جانب العبادة ؛ لأن ((احرص على ما ينفعك)) أي في أمور دينك يتناول العلم النافع والعمل الصالح ، فأيضا يحرص الإنسان على جانب العبادة وأن يكون له حظ منها ولاسيما فرائض الدين وواجباته ، قد قال تعالى في الحديث القدسي : ((ما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه)) ، فيكون أعظم حرص الإنسان على فرائض الدين ، حرصه على الصلاة والعناية بها ، الآن كثير من الناس عندهم تهاون عجيب في الصلاة ؛ تفريط في أوقاتها تفريط في واجباتها تفريط في أدائها مع جماعة المسلمين ، أين الحرص على ما ينفع الإنسان في دينه مع هذا التهاون في هذه الفريضة من فرائض الدين!! فيحرص الإنسان على

الواجبات ، أيضا يحرص على البعد عن المحرمات لأن الحرص على البعد عن المحرمات هو داخل في قوله ((احرص على ما ينفعك)).

فشمل الحديث في قوله عليه الصلاة والسلام ((**احرص على ما ينفعك**)) شمل قوله «ماينفعك» أمورًا ثلاثة ما هي؟

الأمر الأول: الرزق ما ينفعك في دنياك الرزق الطيب ، وما ينفعك في أمور دينك قسمناها إلى قسمين علم نافع وعمل صالح ، أصبح قوله عليه الصلاة والسلام يشمل أمورا ثلاثة : الرزق الطيب ، والعلم النافع ، والعمل الصالح لماذا فصَّلتها لكم هذا التفصيل ؟ لأنني أريد أن أربطكم بدعاء كان يواظب عليه –عليه الصلاة والسلام– كل يوم بعد صلاة الصبح يذكر فيها هذه الأمور الثلاثة التي هي حقيقة ما ينفع الإنسان ((اللهم إني أسألك علما نافعا، ورزقا طيبا ، وعملا متقبلا)) وقد دعوت به في أول هذا الدرس .

إذًا قوله ((احرص على ما ينفعك)) لو قال قائل ما الذي ينفعني في ماذا تتلخص الأمور التي تنفعني؟ ماذا يجمعها التي ينبغي أن أحرص عليها ؟ في ماذا تتلخص؟ قل تتلخص في أمور ثلاثة : العلم النافع ، والرزق الطيب ، والعمل المتقبل ؛ هذا هو النافع وما سوى هذه الأمور الثلاثة دعه ، الذي ينفعك والذي يُطلب منك أن تحرص عليه تمام الحرص أمور ثلاثة : العلم النافع والرزق الطيب والعمل الصالح ، ولهذا كان نبينا عليه الصلاة والسلام كل يوم بعد صلاة الصبح كما في حديث أم سلمة في السنن وغيرها كان يقول : ((اللهم إني أسألك علما نافعا ورزقا طيب وعملا متقبلا)) ، وهذه الأمور الثلاثة هي أهداف المسلم في يومه ، ولا أعلم للمسلم أهدافا في يومه إلا هذه الثلاث: العلم النافع ، والرزق الطيب ، والعمل المتقبل . إذً قوله عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث ((احرص على ما ينفعك)) لو قال قائل ما هو الذي ينفعني وينبغي عليَّ أن أحرص عليه في أيامي وفي حياتي؟ يقال له أمور ثلاثة يجمعها قول النبي صلى الله عليه وسلم ((اللهم إني أسألك علما نافعا ورزقا طيبا وعملا متقبلا)) .

قال : ((**ولا تعجزن**)) أي انبذن عنك العجز وابتعد عنه ، وجاهد نفسك على النهوض والهمة العالية وترك التواني والكسل والفتور ؛ فإن هذه لا تأتي لك بخير ، فاطَّرح العجز والكسل والفتور وقم بالأمور النافعة بعزيمة وهمة لا تبقى متكاسلا ، إذا خطر ببالك أمرًا نافعا في دينك ، أمرًا نافعا في دنياك أمرًا نافعا ، في علمك وعبادتك لا تعجز؛ وهذا فيه نبذ للعجز . الآن مثلا تعقد مجلس علمي ويدرَّس فيه مر تحتاج إليه وتجد نفسك تجهله ، فإذا بدأ العجز أو الكسل يتسرب إليك ويقول "لا ، أجِّل فيما بعد الآن أنت مشغول بكذا" ، مثل هذه الأمور اطَّرحها ، كلما عنَّ نافع لك وعرض أمر نافع لك في دينك ابتدر واذهب إليه بهمة وبنشاط وتخلى عن الكسل والعجز ، لأنه لا يأتي لصاحبه إلا بالخسران والحرمان، يمضي العاجز الكسلان محروما من الخير ، وكلما عرض له

خير أجَّله وسوَّف وأخر إلى أن تنقضي حياته وهو لم يحصل شيئا ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام ((لا تعجزن))

.

وقوله هنا في هذا المقام بعد قوله ((احرص على ما ينفعك واستعن بالله)) ؛ قوله ((لا تعجزن)) فيه تنبيه إلى أن هناك معاني ستدخل عليك عندما تحرص على النافع وهي أمور العجز والكسل والتواني ؛ فجاهد نفسك على ألا تحول بينك وبين الخير فتطرح العجز والكسل وتقبل على ما ينفعك .

قال: ((**فإن أصابك شيء**)) يعني إن أصابك ضر أو بلاء ونزلت بك نازلة .

((**فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا**)) لماذا ؟ لأن هذا الكلام يفتح عليك عمل الشيطان ، لأن هذا يفتح عليك باب من أبواب الشيطان عليك فيدخل الإنسان في معاني سيئة جدا ، ((فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا)) يعني مثلا لو قدِّر لإنسانٍ ما أنه سلك طريقًا وأصابه حادث في الطريق مثلا لا يقل لو أني جلست في البيت اليوم وما خرجت كان أسلم لي ما حصل لي الحادث ، أو لو أني لفيت مع الشارع الفلاني أو لو أني ولو أني الخ لا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا ، أي لما حصل هذا الحادث . وأيضا عندما يفوتك مرغوب لا تقل لو أني عجلت أو لو أني أسرعت أو لو أني لم أمُر بالمكان الفلاني ، مثلا كنت على سفر وصت المطار وطارت الطائرة وتأخرت ؛ لا تقل لو أني ما نمت اليوم بعد الفجر لو أني لو أني .. لا تقل .

((**ولكن قل : قدَّر الله وما شاء فعل**)) لماذا ؟ لأنك لو دخلت في باب «لو» دخل عليك الشيطان وأمرض قلبك وتعبت نفسيتك وقلقت وضجرت ، بينما إذا قلت «قدر الله وما شاء فعل» سلوت واطمأن قلبك وقنعت أن هذا الأمر لم يكتب ، ولو كان كتب لحصل لي ؛ فتسلو نفسك ويطمئن قلبك.

قال ((**ولكن قل قدر الله وما شاء فعل**)) هذه تُضبط في كتب الحديث «قدَّر الله وما شاء فعل» ، «قدَرُ الله وما شاء فعل» كلها يؤدي إلى معنى واحد ، «قدَّر الله وما شاء فعل» فعل وفاعل ، «قدَر الله» مضاف ومضاف إليه، وما شاء فعل . فالأمور كلها بقدر الله. وهذا فيه فائدة الإيمان بالقدر ، وأيضا أن إيمانك بالقدر ينبغي أن يصاحبك في حياتك وانتبه لهذه المسألة فإنها مهمة جدا ، إيمانك بالقدر ينبغي أن يصاحبك في حياتك لا يكون الإيمان بالقدر أمور نظرية تؤخذ وقت الدرس ، الإيمان بالقدر ينبغي أن يصاحبك في حياتك وهو أمر تحتاج إليه في كل لحظة من لحظاتك فيكون معك دائما ، دائما تشعر أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأن القدر قدر الله وما شاء فعل ، تؤمن بذلك ويكون هذا الإيمان مصاحبا لك ، وكلما كان هذا الإيمان مصاحبا لك في حياتك كنت على خير عظيم .

قال: ((**ولكن قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان**)) لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا الخ، «لو» تفتح عمل الشيطان ، ولو التي تفتح عمل الشيطان هي التي يكون فيها مثل التلوَّم على أمور القدر والتضجر مما

حصل وإظهار الندم على ما كان من الإنسان من سلوك طريقٍ أو ترك طريق أو نحو ذلك من الأمور ؛ فهذه تفتح على الإنسان عمل الشيطان .

و«لو» لها استعمالات صحيحة؛ لما تكون في تمني الخير ، أو في بيان العلم وإيضاحه ((لو استقدمت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي ولجعلتها عمرة)) لها استعمالات صحيحة ، لكن استعمالها في مثل هذا الموضع الذي حذَّر منه النبي عليه الصلاة والسلام هو من المنهي عنه ومما يفتح على الإنسان عمل الشيطان .

وبهذا يكون المصنف رحمه الله تعالى أنهى ما يتعلق بهذا الباب العظيم «باب الإيمان بالقدر» لينقلب بعد ذلك إلى الكلام على باب آخر من أبواب الإيمان وهو «باب الإيمان بالملائكة» لكن قبل أن أنهي ما يتعلق بالإيمان بالقدر أنبه على أمر وهو سؤال قد يُطرح وهو ما حكم الخوض في مسائل القدر؟ وما حكم البحث في مسائل القدر؟ وقد صح في الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((إذا ذكر القدر فأمسكوا، وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا)) صح هذا عن النبي عليه الصلاة والسلام صح عنه الأمر بالإمساك عند ذكر القدر «إذا ذكر القدر أمسكوا» : أي عن الخوض ، وجاء في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه يومًا وهم يتنازعون في القدر فغضب عليه الصلاة والسلام كأنما فُقئ في وجهه حب الرمان ؛ أي احمَّر وجهه عليه الصلاة والسلام من الغضب قال: ((أبهذا أمرتم ؟! ألهذا دعيتم؟!)) ، فنهاهم عليه الصلاة والسلام عن ذلك وحذرهم منه وبيَّن أنه باب هلكة. فإذًا يأتي سؤال : ماحكم الخوض في مسائل القدر؟

والجواب على ذلك: أن الخوض في مسائل القدر له منحيان :

- المنحى الأول : وهو أن تبحث مسائل القدر في ضوء الآيات والأحاديث ؛ تقرأ الآيات تقرأ الأحاديث وتفهم معانيها في ضوء كلام أهل العلم وأئمة السلف فهذا لا بأس به ، وأهل العلم ألَّفوا مصنفات في القدر وعقدوا في كتب السنة أبوابًا في القدر أوردوا فيها الآيات والأحاديث المتعلقة بالإيمان بالقدر. فدراسة هذه الآيات ودراسة هذه الأحاديث والتأمل في معانيها ومضامينها ودلالاتها أمر لا ينهى عنه بل هو أمر مطلوب لأنه من العلم الشرعي الذي يندب المسلم إلى تعلمه ومعرفته .
- المنحى الآخر: الخوض في القدر بالعقل المجرد وبالظنون الباطلة وبالأوهام الكاسدة ، أو بالسؤالات الاعتراضية على الله سبحانه وتعالى وعلى أقداره ، كأن يقول قائل والعياذ بالله: "لم فعل الله كذا؟ ولِمَ لم يفعل كذ؟ا ولم قدَّر كذا؟ ولم لم يقدِّر كذا؟ والله تعالى يقول: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣] ولهذا قيل : «لا تقل لم أمر الله ولكن قل بم أمر الله» ، انظروا إلى الفرق بين السؤالين : لا تقل لم أمر الله ، ولكن قل بم أمر الله ، وقارن السؤالين بالآية ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣] ؛ قول القائل «لم أمر الله؟» هذا يتعلق بما يفعله الله ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ ، لا تقل لم أمر الله؟ من أنت حتى تسأل رب العالمين عما يفعل؟! أنت مخلوق من مخلوقاته

، «ولكن قل بم أمر الله» اسأل عما تسأل عنه أنت يوم القيامة ﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ أنت ستُسأل يوم القيامة عليك أن تسأل عما ستُسأل عنه يوم القيامة فتقول بم أمر الله؟ أي بماذا أمرنا ، فرق بين قول القائل «لم أمر الله؟» وقوله «بم أمر الله؟» ، فقولك «بم أمر الله» هذا سؤال مطلوب لأنه فقهٌ في دينك فقهٌ فيما سيسالك الله تبارك وتعالى يوم القيامة فهذا مطلوب منك ، أما أن يقول الإنسان «لم أمر الله» فهذا أمرٌ منهي عنه .

فإذًا الخوض في القدر بالعقل المجرد أو بالظنون أو بالأوهام أو بالسؤالات الاعتراضية أو منازعة الله سبحانه وتعالى في أقداره أو نحو ذلك من المعاني هذا محرم وباطل وداخل تحت قول النبي صلى الله عليه وسلم ((إذا ذكر القدر فأمسكوا)) . إذًا قوله ((إذا ذكر القدر فأمسكوا)) مختص بهذا الجانب لا يدخل فيه الجانب الأول ، وإذا أردت توضيح ذلك اقرأ ما بعده ((وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا)) ؛ إذا ذكر أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام بذكر مناقبهم ومآثرهم وفضائلهم وأعمالهم الخيِّرة نمسك أو نخوض في هذا الأمر؟ نخوض فيه ، والعلماء كتبوا كتب كثيرة في فضائل الصحابة ومناقب الصحابة ، هذا لم نؤمر بالإمساك عنه ، بل هو من العلم النافع المفيد الذي يُسعى في نشره وبيانه .

إذًا ما معنى قوله ((إذا ذكر أصحابي فأمسكوا)) ؟ يعني إذا ذُكروا بالوقيعة فيهم بالسب لهم والطعن بالشتم بالنيل منهم بالخوض فيما شجر بينهم أمسكوا عن ذلك ؛ أي لا تذكروهم إلا بالجميل وبالخير والثناء وذكر مناقبهم وفضائلهم ، أما ذكرهم بغير ذلك فلا يحل ولا يجوز .

هذا ونسأل الله تبارك وتعالى لنا أجمعين التوفيق والسداد والهداية والرشاد ، وأن يغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات .

وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين